فى رسالة الغفران لأبي العلاء

بقـــلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ٢ —

ثانيا — مواطن الخيال ومصبه فيها

نسج المعرى رسالة غفرانه على الخيال لحمة وسدى ، وإن وقعت جمهرة تخيلاته من النوع البيانى الغالب على أدبنا العربى ، ذلك النوع الذى لايعدو تفسير ماهو موجود تفسيرا توضحه الصورة المبنية عادة على الاستعارة والتشبيه ، وهو وإن كان الغالب على أدبنا العربى فان القادرين عليه ليسوا بالكثرة الكثيرة من الأدباء ، لأنه يتطلب دقة ملاحظة واشتعال ذكاء يدرك بهما الأديب الميزات الروحية للاشياء ثم يصوغها صوغا ينفى عنها الجمود ويجعل فيها الحياة .

فمن ذلك تخيله ماتخيل فى أنهار الجنة الجارية بالماء أو اللبن أو العسل أو الخمر وماتستلزمه هذه الأخيرة حين الشرب من أباريق وكئوس وسقاة وندمان ، فقد استمد ذلك من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية الواردة بمعناها أو تفصيلا لهذا المعنى ، والتى لسهولة تناولها ليست فى حاجة إلى أن نسوقها للاستشهاد .

ومنه تصوره رغبة أبى ذؤيب الهذلى أن يحلب ناقة ويشوب لبنها بالشهد كما كان يتمنى ذلك فى دنياه ، فانه أخذه من قوله فى حبيبته :

وان حديثا منك لو تعليننه جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها تشاب بماء مثل ماء المفاصل

ومنه التجاؤه يوم الموقف إلى الشعر يتقرب به إلى رضوان وزفر من خزان الجنة ، وإلى حمزة بن عبد المطلب حين لم يجده ذاك ، وكذا طلبه الى جارية الزهراء ان تجيزه الصراط محمولا على ظهرها ويداه متمكنتان من فوق كتفيها بيديها على صدرها ، فانه أخذ الشفاعة بالشعر مما كان يفعله الشعراء من التقرب به إلى الملوك والسادة والأعيان ، كما أخذ تلك الصفة فى الحمل من الحملة المعروفة بالزقفونة فى مثل قول الجحجلول من أهل كفر طاب إحدى قرى الشام .

صلحت حالتى إلى الخلف حتى صرت أمشى إلى الورى زقفونه

ومن قول الآخر فيها وهو الذى تمثل به حين طلب إلى الجارية ماطلب

ست إن أعياك أمرى فاحملينى زقفونه

ومنه تخيله المأدبة التى أرادها أن تقام فى الجنة لكل من كان فى دنياه ذا أدب وعلم ، وكذا حفلة الشرب والغناء التى أراد أن تمر بكل من كان من عشاقهما فى الحياة الأولى ، فان كلتيهما لم تكن إلا عملية مكرورة معادة لمثلها فى الحياة الدنيا ، ولكن لدى أرباب النعمة والجاه والسلطان والسخاء الذين تعودوا البذل فى مآدب الأكل ومجالس الشراب ، موغلين فى السرف ومغرقين فى الافتنان .

ومنه تخيله ماتخيل من الأعمال التى نسبها إلى الجنى حين قرض على لسانه قصيدتيه الرائية والسينية فى ألوان من التمرد والشيطنة مما اعتاد الأنس أن ينسبوه الى الجنان ، وفى أحوال الرجم على حسب ما أدلت به عنه الشرائع ونطق القرآن ، ولكل من القصيدتين دلالة على ما كان بنفس المعرى من قدرة ذات سعة فى هذا الخيال ، وإليك من كل مثلا على كثرة مافيهما من أمثال .

قال من الأولى فى وسوسة الجنى لموسى عليه السلام :

وقد عرضت لموسى فى تفرده بالشاء ينتج عمروسا وفرفورا
لم أخله من حديث ماووسوسة إذ ذك ربك فى تكليمه الطورا

وقال من الأخرى فى حمله زوجا على سوء الظن بعرسه حتى طلقها ثم ندمه بعد ذلك .

وتخرج الحسناء مطرودة من بيتها عن سوء ظن حديس

نقول لانقتسع بتطليقة واقبل صيحالم يكن بالدسيس
حتى إذا صارت إلى غيره عاد من الوجد بجد تعيس
نذكره منها وقد زوجت ثغرا كدر فى مدام غريس

إلى غير ذلك من التخيلات البيانية الكثيرة التى كان آخرها فيها ذاك الذى ذكرناه آنفا آخر البحث الأول من رغبته أن يعتريه من الفتور عقب الشرب ما كان يعترى أخا الندام، وخلعه على نفسه من ذلك صورة لم يكن ليصل إلى مثلها أمثال النواسى فى خوالى الأيام .

على أن فى الرسالة من الخيال الابتكارى الذى يعمد فيه الأديب الى تأليف مجموعات جديدة من العناصر المخزونة فى ذاكرته كما يؤلف البستانى الطاقة الجميلة الرائقة من أزاهير بستانه ، مواطن ذات شأن ، وقبل أن نعدد من هذه المواطن أشياء ، ينبغى أن نصرح هنا بأن الرسالة فى موضوعها جملة من هذا الخيال الكلا ابترى على الصورة التى عرضناها ونحن نذكر أشخاصها ومتناولها ، فان تصوره رجلا يصعد به الى السماء ليرى نعيم الجنة وجحيم النار ، وتخيله الحديث عجبا عن هذا الرجل مع شخصيات يفرض تلاقيه بها فى كلتيهما ، غير ناس أن يصور يوم الموقف وموقفه منه موازنا بمواقف المحشورين ، وكذا تصوره جنة للعفاريت المؤمنين ، وتنزله بعض منازل الجنة لمن تسومح بأدخالهم فيها ، ليس إلا صورة مبتكرة ألفها خياله من عناصر اختزنتها ذاكرته ، سابقا بها دانتى الايطالى بثلاثة قرون وملتن الانجليزى بستة ، هذين الروائيين اللذين لم يتصورا أكثر مما تصور ، ولم يفضله الأول فى جحيمه ولا الثانى فى فردوسه ، على ماخلف لكليهما من أثر يقتفى ومثال يحتذى ، وهذى بعض أمثلة من هذا الخيال الابتكارى التأليفى الذى بثه أبو العلاء فى ثنايا رسالته .

من ذلك تخيله الغناء يقع من إوز فى الجنة قد انتفض قيانا كواعب يغنين بجميع الألحان حين يقول ، ويمر رف من إوز الجنة فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظر الأمر ومن شأن طير الجنة أن يتكلم فيقول له ابن القارح ماشأنكن ؟ فيقلن ألهمنا أن نسقط فى هذه الروضة فتغنى لمن فيها من

شرب فيقول على بركة الله القدير فينغضن فيصرن جوارى كواعب يرفلن فى وشى الجنة وبأيديهن المزاهر وأنواع ما تلتمس به الملاهى فيعجب وحق له العجب وليس ذلك ببديع من قدرة الله جلت عظمته ، إلى آخر ما انساق فيه من حديث عنهن استغرق صفحات .

ومنه مانخيله فى حور الجنة اللاتى يخرجن من ثمارها حيث يقول « ويمر ملك من الملائكة فيقول له ابن القارح أخبرنى عن الحور العين اللاتى يقول فيهن الكتاب الكريم — إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا لأصحاب اليمين — فيقول الملك، هن على ضربين ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الاعمال الصالحة ، فيقول وقد عجب بما سمع، فأين اللواتى لم يكن فى الدار الفانية وكيف يتميزن من غيرهن فيقول الملك اقف أنرى فيتبعه فيجىء به إلى حدائق لايعرف كنهها إلا الله ويقول له خذ ثمرة من هذا الثمر فاهصرها فان هذا الشجر يعرف بشجر الحور فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ماشاء الله من الثمار فيهصرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول من أنت ياعبد الله فيقول أنا فلان بن فلان فتقول إنى أمنى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير ويقول هذا كما جاء فى الحديث، أعددت لعبادى المؤمنين مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما اطلعتم عليه — ، إلى آخر ما ساق فيه الحديث عن حور الثمار وأن من الثمار من تخرج منها أربع حوريات لاواحدة ولا اثنتان ولا ثلاث كما حدث فى مواضع أخريات .

ومنه تخيله أن الله أعطى بشارا الأعمى فى دنياه عينين فى آخرته لينظر بهما ما ينزل به من نكال ، وأنه إذا أغمضهما لكيلا يرى فتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، وكذا تخيله إعطاءه سبحانه عوران قيس الخمسة عيونا لم ير أحسن منها فى عيون أهل الجنان .

هذا ولم تعدم الرسالة أن يتعرض فيها للخيال الاستيحائى الذى يستعرض فيه الأديب الأشياء فينطقها أو ينطق عنها ، فيحسن التعرض لما أراد

من هذا حديثه عن الثور والحمار الوحشيين وهو فى نزهته للصيد مع عدى بن زيد حيث يقول « فاذا نظر إلى صوار ترتع فى رياض الفردوس صوب الرمح لأخنس ذيال ، فاذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قيد ظفر قال الثور أمسك رحمك الله فانى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله سبحانه ولم يكن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنت أروض فى بعض القفار فمر بى ركب مؤمنون قد أكرى زادهم فصرعونى واستعانوا بى على السفر فعوضنى الله بأن أسكننى فى الخلود ، فيكف عنه الشيخ ، ويعمد إلى علج وحشى ما التلاف عنده بمخشى ، فاذا صار الخرص منه بقدر أنملة قال الحمار أمسك ياعبد الله فان الله أنعم على ورفع عنى البؤس ، وذلك أنى صادنى صائد بمخلب وكان إهانى له كالسلب . فباعه فى بعض الأمصار فاتخذ منه غرب شفى بمائه الكرب وتطهر بنزيفه الصالحون ، فشملتنى بركة من أولئك فدخلت الجنة أرزق فيها بغير حساب ، فيقول الشيخ . فينبغى أن تتميزن ، فمن كان منكن دخل الفانية فما يجوز أن يختلط بوحوش الجنة ، فيقول ذلك الوحشى لقد نصحتنا نصح الشفيق وسوف نمتثل ما أمرت ،

ومنه حديثه عن أسد القاصرة حيث يقول « ويهم ابن القارح فاذا هو بأسد يفترس من صيران الجنة وحسيلها فلا تكفيه مائة ولا مائتان فيقول فى قلبه لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الايام لا يطعم سواها شيئا ، فيلهم الاسد أن يتكلم وقد عرف ما فى نفسه فيقول ياعبد الله أليس أحدكم فى الجنة تقدم له الصحفة فيأكل منها مثل عمر السموات والارض يلتذ بما أصاب فلا هو يكتف ولا هى الفانية ، كذلك أنا أفترس ماشاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكن تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز ، وأتدرى من أنا؟ أنا أسد القاصرة التى كانت فى طريق مصر فلما سار عتبة بن أبى لهب يريد تلك الجهة وقال النبى ﷺ اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، ألهمت أن أتجوع له أياما وجئت وهو نائم بين الرفقة فتخللت بين الجماعة اليه فافترسته وأدخلت الجنة بما فعلت .

إلى غير هذين من ألوان الخيال الاستيحائى ، وبه وبسابقيه الابتكارى والبيانى

يكون أبو العلاء قد جمع فى رسالته هذه بين ألوان الخيال جميعا فى أبدع تصوير وأجمل أداء .

وبعد فلعل من تمام هذا المبحث أن نذكر النبذة التى أنكر فيها الاستاذ العقاد على أبى العلاء الخيال فى رسالة الغفران ثم نعقبها بالكلمة التى رد فيها الدكتور طه حسين عليه هذا الانكار .

قال الاستاذ العقاد بعد أن أعجب بالرسالة وأن أحدا لم يسبق أبا العلاء الى مثلها .

« أما أن ينظر اليها كأنها نغمة من نغمات الوحى الشعرى على مثال ما نعرف من القصائد الكبرى التى يفتن فى تمثيلها الشعراء ، والقصص التى يخترعونها اختراعا أو ينظر اليها كأنها عمل من أعمال توليد الصور والبياس المعانى المجردة لباس المدركات المحسوسة ، فليس ذلك حقا ، وليس فى قولنا هذا غبن للمعرى أو بخس لرسالته الغفران ، كلا ، ولا هو مما يغضب المعرى أن يقال هذا المقال فى رسالتـــه » .

وقال الدكتور طه حسين بعد كلام فيما كتب الاستاذ العقاد عن الرسالة فى غير ناحية الخيال :ـــ

ولكن الذى أخالف العقاد فيه مخالفة شديدة هو زعمه فى فصل آخر أن أبا العلاء لم يكن صاحب خيال حقا فى رسالة الغفران ، فان هذا نكر من القول لا أدرى كيف تورط فيه كاتب كالعقاد ، نعم إن العقاد كاتب ماهر يحسن الاحتياط لنفسه فهو بعد أن أنكر الخيال على أبى العلاء عاد فأثبت له منه حظا قليلا ، ولكنه يستطيع أن يخدع بهذا الاحتياط قارئا غيرى ، أما أنا فلن أنخدع له ، فهو ينكر على أبى العلاء أن يكون شاعرا عظيم الحظ من الخيال فى رسالة الغفران « منه سوده » كما يقول العامة ، وهل يعلم العقاد أن دانت إنما صار شاعرا نابغة خالدا على العصور والاجيال وائقا من إعجاب الناس جميعا ، بشىء يشبه من كل وجه رسالة الغفران أستغفر الله ، إن من الاوربيين الآن من يزعم أن شاعر فلورنسة قد تأثر بشاعر المعرة قليلا أو كثيرا ، وما الخيال ؟ أما اذا كان ملكة تمكن الكاتب أو الشاعر من أن يخترع شيئا من لاشىء أو يؤلف أشياء لا ائتلاف بينها ، فلم يكن أبو العلاء على

حظ من الخيال، لانه لم يخترع فى رسالة الغفران شيئا من لاشىء ، ولم يؤلف بين متناقضات ولكننا نعلم أن علماء النفس لايسمون هذه الملكة خيالا وانما يسمونها وهما ، وهم ينبئوننا أن الخيال لايخترع شيئا من لاشىء وإنما يستمد صوره ونتائجه من الاشياء الموجودة ، يؤلف بينها تأليفا غريبا يبهر النفس ويمتعها ، واذا كانوا صادقين وأحسبهم صادقين ، فحظ أبى العلاء من الخيال فى رساله الغفران لاحد له.

ليس لابى العلاء حظ من الخيال ! وإذن فماذا يلذنا من رسالة الغفران ؟ ولم يعجبنا حوار هؤلاء الشعراء والعلماء وذكر الجنة والنار وما فيهما ؟ أليس لان خيال أبى العلاء الخصب القوى قد استطاع أن يؤلف بين هذا كله تأليفا غريبا لذيذا. لم يكن أبو العلاء ملزما أن يخترع الشعراء والعلماء والجنة والنار. فدانت لم يخترع فرجيل ولم يخترع الجحيم ولم يخترع الأشخاص الذين لقيهم ، وإنما استمدهم جميعا من الأدب القديم أو من الدين المسيحى ، ومع ذلك فهو صاحب خيال ، وخياله هذا مصدر مجده الخالد ، لانقل إن حظ أبى العلاء من الخيال قليل ، بل قل إن حظه من الخيال عظيم جدا قيم جدا، خليق بالخلود ، لأنه الخيال المنتج حقا ، هو الخيال الذى تجده عند دانت ، والذى تجده عند أناتول فرانس بنوع خاص ، وما أقوى الشبه بين أناتول فرانس وأبى العلاء ، فليس بين الرجلين إلا فرق واحد هو أن تشاؤم الكاتب العربى محزن مظلم ، وتشاؤم الكاتب الفرنسى مبتسم مشرق ، ومن عريب الأمر أن من الفرنسيس من ظلم أناتول فرانس على هذا النحو الذى يظلم عليه العقاد أبا العلاء ، فقد انخدع بعض الكتاب الفرنسيين بكثرة مايروى أناتول فرانس عن قدماء اليونان والرومان وأهل القرون الوسطى ، فقالوا إن الرجل لاشخصية له وإنما هو يجمع آثار غيره لا أكثر ولا أقل ، ويكاد العقاد يقول هذا فى رسالة الغفران ، لأن أبا العلاء ملأها بما رواه عن الشعراء والعلماء والفلاسفة وما أخذ عن رجال الدين ، ولكن غير العقاد خليق أن يتورط فى مثل هذا الخطأ ، فسر البلاغة ـ ولقد كدت أقول الاعجاز ـ أقوى وأظهر فى رسالة الغفران من أن يغفله أديب كالعقاد .

السباعى بيومى